العنوان العاشر

الموءودات

على الرغم من ترحيب الشرع، والعرف بالمبادرات الخيِّرات، وعلى الرغم من المكاسب، التي يحصل عليها روَّادها، والنفع الذي ينال المجتمع بسببها، على الرغم من هذا، وذاك، إلاَّ أن وأد المبادرات، يُعد ظاهرة في المجتمعات.

ينبغي على المجتمع الحي، أن يعتب على أولئك الذين يئدون مبادراتهم، ويبخلون بها، كما يعتب على صاحب المال الذي يبخل به، وقد احتيج إليه، فإنهما في البخل سواء وعبَّر عن هذا الشاعر زهير بن أبي سلمى حين قال:

ومن يك ذا فضلٍ، فيبخل بفضله على الناس يُستغن عنه، ويُذمم

لقد أحسن من قال إن أعظم ما يحرص عليه الشيطان، أن يرى أهل الخير، أصحاب القدرات، جالسين، دون أن يفعلوا شيئاً لمجتمعاتهم، والأحسن منه من قال: إنني حين أجلس ساعة، لا أقدم فيها شيئاً للإنسانية، أشعر أنني ارتكبت جريمة بحقها.

وها هو غاندي، يشخِّص هذا الواقع بقوله: إن الفرق بين ما نفعله، وما نحن قادرون على فعله، يمكن أن يحلَّ معظم مشاكل العالم.

لقد شنَّع الإسلام على نفر من أهل الجاهلية، كانوا يئدون بناتهم، فإن هذه الطفلة الصغيرة التي هانت على أبيها، فدفنها في التراب، كان يمكن أن تنمو، وتصبح ذات شأن، فتنتفع البشرية بها، وبمن تنجب.

يقال الكلام نفسه، بحق المبادرة التي قد تبدو لصاحبها فكرةً عابرةً، أو مجرد خاطرة، لا تستحق الإظهار، والإشهار، لكنها قد تنمو مع الزمن، ويُقيض الله لها من يرعاها.

المبادرات أفكار تنمو، فما كان منها غريباً اليوم، قد يُصبح رأياً للأغلبية، وكم من مبادرة، لم يقدرها أصحابها حق التقدير، صارت بعد حين قانوناً، وسنَّة حسنة، عادت على الناس بالخير الكثير.

بعد هذا الذي قيل، يبرز سؤال ثقيل، يفرض نفسه في هذا المقام بشأن الأسباب التي تؤدي إلى وأد المبادرات، وموت الأفكار.

بدا لي أن ثمة أسباباً متنوعة، تسهم في وأد المبادرات، يحضرني منها الآتي:

١- عدم توفر بيئة مناسبة، لطرح المبادرات، فإن قُدِّر وجود بيئة، لا تنتشر فيها ثقافة احترام المبادرة، ولا يُعلى من شأنها، ولا يُصغى إلى أصحابها، فسلام عليها في الراحلين.

ليت الأمر يقف عند هذا الحد، فإن بعض البيئات تحترف التقريع، بدلاً من التشجيع، فأنىَّ لبيئة هذه حالها، أن تنبت في أرضها مبادرة لأنها تبدو مخاطرة.

لقد كان النبي، ﷺ يفتح الباب على مصراعيه، أمام المبادرات حين كان يقول في أصعب الظروف، أشيروا عليَّ أيها الناس[1].

٢- عدم وجود مستمع جيد، يُقدر المبادرة من حيث هي مبادرة، بغض النظر عن مصدرها، فإن كثيراً من أصحاب المبادرات يسعى إلى وأدها، حين لا يُستمع إليه، وحين يخشى أن يواجه بسببها بعض المتاعب.

٣- سرقة المبادرات من أصحابها، ونسبتها إلى آخرين سبب بارز في كتمانها، حتى تموت في مهدها، فإنه مما يؤسف له، أن هناك أناساً يحترفون سرقة المبادرات من أصحابها بوسائل متعددة، وتلك وأيم الله صفة، في غاية القبح.

(١) علي الصلابي، *انظر السيرة النبوية*، ج٢، ص٨، مرجع سابق

يقابل الخوف من سرقة مبادرته، خوف آخر يتمثل في الخشية من اتهامه بسرقة المبادرة، التي يطرحها، ومع علمه أن الأمر ليس كذلك، إلاّ أنه يفضل وأدها، والحالة هذه.

قد يخفف عنه في دفع هذا الشعور، قول الفيلسوف، جيرو: السرقات هي أساس كل الأعمال الأدبية، أما المبتكر فلا يمكن معرفته، والقصد أن لا يدع الإنسان مبادرة خطرت له – لا يعلم أنه سبق إليها – بسبب توهم لا أساس له.

٤– تكليف صاحب المبادرة بمبادرته، من حيث الكتابة عنها، وتوضيحها، ورعايتها، ومتابعتها، فيستثقل هذه التكاليف، ويختصر الطريق، ولا يفصح عن مبادرته، وكأنه يقول إن دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وإذا به ذاك الرجل الجاهلي، حين كُلف برعاية ابنته وأدها وأغلق الباب.

يظهر هذا التوجه في كثير من الاجتماعات، فما أن يُبادر أحد الأعضاء إلى تقديم اقتراح، حتى يبادر رئيس الجلسة بتكليفه بإعداد دراسة وافية عنها، فتتحول هذه المبادرة من مجرد مبادرة طيبة، يحتاج صاحبها إلى عون جماعي، إلى تكليف فردي، قد يؤاخذ عليه، لاحقاً، وكأن ثمة عقاباً ينتظر صاحب المبادرة، على مبادرته.

يحصل مثلُ هذا أيضاً، في قاعة الدرس، فما أن يُبادر أحد الطلبة، بطرح رأي، أو إثارة قضية، حتى يقول له الأستاذ، ننتظر منك في المحاضرة القادمة، أن تقدم لنا شيئاً بشأنها.

إذا حدث أن كلّف الأستاذ، طلاب الفصل، جميعاً بتقديم دراسة موجزة، أو بحث صغير بشأن المبادرة، التي طرحها زميلهم، سخط الطلاب عليه، لإثارته لهذه القضية.

أحسب أنه ينبغي في هذا المقام، التفريق بين أمرين: أحدهما، القدرة على تقديم المبادرة، وثانيهما، القدرة على تقديم دراسة وافية عنها، والعمل على تنفيذها، فليس بالضرورة من يُحسن الأولى، يُحسن الثانية، فكلٌ ميسر لما خُلق له، كما هو معلوم، من كلام النبي ﷺ المعصوم.

لو أن سلمان رضي الله عنه، حين بادر فاقترح يوم الأحزاب، حفر الخندق حول المدينة، كلفه النبي، ﷺ بالقيام بهذه المهمة، لحصل ما لم تحمد عقباه، فلا والله، ما كان ليفعل هذا رسول الله، ﷺ، بل كان أول من بادر، فحفر بنفسه[٢].

هذا التفريق، يفتح المجال أمام أصحاب المبادرات، لتقديمها دونما تردد، أو شعور بعواقب لا يقدر عليها، كما يجب التفريق بين معونة صاحب المبادرة عليها، وبين سرقتها منه، عن طريق تشكيل لجنة، وعدم إدراجه ضمنها، أو إغفال ذكره، عند عرضها على المجالس.

(٢) علي الصلابي، *السيرة النبوية*، ج٢، ص ٣٣٠، مرجع سابق

قد تُسئ نظرة عابرة، إلى ما تقدم من طروحات، وتتوهم أنها مسائل جانبية، ليست لها ذاك الأثر، بيد أن صاحب هذه النظرة، لو أرجع البصر مرة أخرى، وجال به حوله، لكان له رأي آخر.

٥- حفظ المبادرات دون مناقشتها مع أصحابها، أو إبداء الأسباب التي أدت إلى حفظها، أو إهمالها، وهذا يورث أصحاب المبادرات، إحباطاً يدفعهم إلى الزهد في تقديمها، أو حتى مجرد الحديث عنها.

يستدعي الحرص قرع الدفوف، تحت الرفوف التي تتراكم فوقها المبادرات، بغية إيقاظها، ونفض الغبار عنها.

٦- عدم استحضار كثير من الصالحين، ضرورة أن يكونوا مصلحين، فالصالح في نفسه، الذي يعيش لها، ويتعاهدها، لا يجد حرجاً من وأد ما يعنُّ له من مبادرات، أما المصلح، فإنه يحمل هم الأمة، ويعايش قضايا المجتمع، ويستحضر مشكلاته، ومَنْ كان هذا شأنه، فإنه كثيراً ما تبدو له مبادرات، لا يتردد في طرحها.

٧- استهجان المبادرة، وربما السخرية منها، لأسباب متعددة، إما لغرابتها أحياناً وإما لما تسببه من حرج، وقد فات هؤلاء أن ما يُعد اليوم رأياً فردياً غريباً، قد يصبح غداً رأياً للأغلبية.

يُعد جزءاً من هذا الاتجاه، انتشار ثقافة التقريع، بدلاً من ثقافة التشجيع، في بعض المؤسسات، وهذه الثقافة كفيلة بأن تقضي على المبادرات، وتدفع أصحابها إلى وأدها في مهدها.

٨- عدم تدوير صاحب المبادرة لمبادرته، وهذا يحول دون الترحيب بها، من قِبل المستمعين لها ابتداءً، مما يعني القضاء عليها في مهدها، بسبب طريقة عرضها.

يوضح هذا المعنى ما ينقل عن الفرنسيين، أنهم يدورون مبادراتهم، أي يجعلونها دائرية، لا أطراف حادة لها، حتى لا تجرح أحداً، أو تؤذيه، وهذا أدعى لقبولها، أو عدم الاصطدام بها، على أقل تقدير.

حين تُحاصر في المجتمع هذه الظواهر، تمهِّد الطريق أمام المبادرات، ويندفع أصحابها إلى تقديمها، وتبدأ معالم الجودة بالظهور، من خلال مبادرة، تقضي على سلبية، وأخرى تتولد منها إيجابية، وتبرز الحركة الولود، ويختفي السكون العاقر. في هذه الأجواء الإيجابية وحدها ينتظر التجديد المفضي إلى التجويد.